بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم فى هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغُذِّى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ؛ فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق

ولا ريب أن اشتمال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد فى أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلى

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كُتب فيها فى النقد ، ثم هم كانوا — ولا سيما متأخروهم — مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كُتب فى نقدها ، بل كان منهم من جمع بين نقدها والنقد الأدبى : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى وركسن بين نقد الادب ونقد التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبي ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه ، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحى فنه الخاص — الأدب — ومن ثم حفل الأدب الإنجليزى بالدراسات القوية لعصور الادب وحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى

فتحى أبو السعود

٧٠٥٤

صور سياحية

أيام فى سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس فى منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين متشوقين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أسف ، بعد أن تركت فى نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التى ألفناها فى كتب الأدب وفى المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس ، فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضى الالزاس مارين بتلك المواقع الشهيرة فى تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور وميلهوز وغيرهما ؛ وقد لاحظنا منذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الالزاسية) فى كل مكان حتى موظفى القطار يخاطبون الركاب بالألمانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية فى طابعها وفى روحها ، وإن كانت السياسة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها فى الحرب الكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية فى الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أو بال) حيث أجريت الاجراءات الجمركية فى أدب وظرف ؛ وشعرنا فى اللحظات القليلة التى مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرق خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عند ما تخترق الحدود الايطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر فى الحال أنك غادرت فى إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسرى ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة ، وتعنى بتنظيم

كل ما يتعلق براحة السياح ورفاهتهم مثل الفنادق والمطاعم وطرق المواصلات والألعاب والنزه ولا سيما النزه والألعاب الشتوية الجبلية والثلجية التي اشتهرت بها سويسرا ؛ والفنادق السويسرية حسبما رأيناها في بازل وتسيريخ (زيوريخ) فنادق من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة وما يتجلى فيها من الأناقة وحسن التنسيق ، وكذلك المطاعم والمقاهي يبدو عليها طابع الاناقة والبهجة والذوق الحسن ؛ ونستطيع أن نقول إن مدينة صغيرة مثل بازل أو تسيريخ تتمتع بمجموعة من الفنادق والمطاعم الأنيقة لاتوجد في مدينة عظيمة كباريس ، التي مازالت فنادقها متأخرة من حيث الفخامة والتنسيق والرفاهة نحو نصف قرن عن فنادق العواصم الأخرى

غير أنه لابد أن نقول هنا إن السائح يدفع لهذه الأناقة والرفاهة في سويسرا ثمناً غالياً ، ذلك أن موجة من الغلاء المرهق تعم سويسرا ؛ وقد كانت سويسرا وقت زيارتنا لها في أغسطس من أشد الدول تمسكا بقاعدة الذهب ، وقد كان الجنيه الانكليزي يساوي ١٥ فرنكا سويسريا فقط ؛ ولم يمض علينا في بازل يوم واحد حتى أدركنا فداحة هذا الغلاء الذي ينغص على السائح كل شيء خصوصاً إذا كان يحمل نقداً خارجا عن عيار الذهب كالجنيه الانكليزي أو المصري ؛ فالسائح المتوسط لا يستطيع أن يعيش في سويسرا عيشة لائقة مريحة بأقل من ٢٥ الى ٣٠ فرنكا في اليوم (١٦٠ الى ٢٠٠ قرش) ، واليك بعض الأمثلة العملية ؛ فأجرة الغرفة في فندق متوسط تساوي من ٦ الى ٨ فرنكات يومياً (والفرنك ستة قروش ونصف) وأجرة الحمام فرنك ونصف ووجبة الطعام في مطعم لائق تساوي ٣ — ٤ فرنكات ، والقهوة أو قدح البيرة يساوي فرنكا ، وهكذا ؛ وأذكر أنني دفعت حين وصولي الى محطة بازل نحو ثلاثة فرنكات (عشرين قرشاً) أجرة لحمل حقيبتي من المحطة الى الفندق الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة متر ودفعت مثلها حين سفري من بازل ، ووقع مثل ذلك كرة أخرى حين وصولي الى تسيريخ وسفري منها ؛ وهذا من أشنع ما لقيت من صور الغلاء ، وتقضي تعريفة الخالين الرسمية بأن يدفع المسافر نصف فرنك (خمسين سنتا) عن كل قطعة ، وأن يضاعف هذا الأجر ما بين الساعة العاشرة مساء والساعة السادسة صباحا ، ولا يتعدى عمال المحطة باب الخروج حيث تقف عربات التاكسي ، وعندئذ يتسلمك حمال الفندق أو تركب التاكسي ، وكذلك لايسمح لحمال الفندق أن يتعدى باب المحطة ؛ ومن ذكريات هذا الغلاء الشنيع أيضاً أنني دفعت فرنكين ونصف (١٧ قرشاً) أجرة لقص الشعر ! وهكذا قضينا بضعة أيام نكتوي في بازل وفي تسيريخ بنار هذا الغلاء الشنيع الذي لا يكاد يلطف من وقعه شيء

ولقد اشتهرت سويسرا بأنها بلد السياحة ، وقد حبتها الطبيعة فعلاً وحبت مجتمعاتها بكل ما يجذب السائح ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا تعول قبل كل شيء على السياحة الثالية أو السياحة الترفة ؛ ولما كانت السياحة مورداً قومياً أساسياً في سويسرا ، فالظاهر أنها تعمل كل ما وسعت لاستغلاله في جميع نواحيه . وحالة الرخاء المستمر التي تتمتع بها سويسرا تساعد في ارتفاع معيار العيش ، وتحمل الشعب السويسري على طلب المزيد من ثمار هذا الاستغلال ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا شعرت أخيراً كما شعرت فرنسا أن هذا المورد قد أصابه النقص وأن دولا أخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والمجر قد أخذت تجذب أنظار السياح وتستغل مورد السياحة بما قدمته من تسهيلات في النقد والسكك الحديدية ، وأن الخروج عن معيار الذهب في مسألة النقد وسيلة لاستدراك هذا النقص . وقد خرجت سويسرا فعلاً كما خرجت فرنسا عن معيار الذهب ، وخفضت قيمة الفرنك السويسري نحو ٣٠ ٪ بحيث أصبح الجنيه الانكليزي يعادل ٢١ فرنكا ؛ وربما كان في ذلك تخفيف على السائح وتخفيض معقول في مستوى المعيشة ، ولكن ذلك يتوقف دائماً على المحافظة على مستوى الأثمان القائم ، فاذا ارتفعت الأثمان تبعاً لنزول النقد ، فأن السائح لايستفيد شيئاً ويبقى الغلاء المرهق حيث هو

* * *

ولنعد الآن إلى بازل ؛ فهي مدينة أنيقة سكانها نحو مائة وخمسين ألفا ، وتتمتع بموقع بديع على منعطف نهر الراين ، والراين يخترق بازل ، ولكنه يبدو متواضعاً هادئاً كأنه نهير صغير ؛ وفي ظاهر بازل من الغرب تجتمع حدود أمم ثلاثة ترى على قيد البصر

سويسرا وألمانيا وفرنسا ؛ وفي بازل أقدم الجامعات السويسرية يرجع إنشاؤها إلى نحو خمسمائة عام ، وبها مكتبة كبيرة تضم نحو نصف مليون مجلد ، وعدة كنائس قديمة أشهرها وأضخمها كنيسة سانت مارتن . وشوارع بازل وطرقها حسنة التخطيط ، ومبانيها منسقة متوسطة الارتفاع ؛ وأهم ميادينها ميدان المحطة Bahnhof's Platz وعليه يشرف معظم الفنادق الكبيرة ، ومنه يتفرع بحذاء المحطة أهم شوارعها ، وهو « الشارع الحر » Freie Strasse وهو الممتد في وسطها حتى النهر ؛ ولبازل ضواح بديعة يمتد اليها خط ترام خاص من المدينة ، يمر خلال مجموعة ساحرة من الوديان النضرة والقرى النظيفة الساحرة ؛ ولقد ذهبنا ذات صباح نجوس خلال هذه المناظر الممتعة ، وقصدنا إلى قرية دورناخ Dornach حيث يقوم معهد « الجتيانوم » Goetheanum فوق أكمة عالية تصل اليها من طرق صاعدة تقوم على ضفافها المنازل والحدائق الأنيقة ؛ ولما وصلنا إلى « الجتيانوم » بعد رياضة بهجة ألفينا بناء ضخما أبلق ، قد بني على الطراز الاغريقي والقوطي ؛ فجزنا إلى داخل المعهد وقابلنا سكرتيره ووقفنا منه على تاريخ المعهد ونظمه وغاياته ؛ وخلاصة ما علمناه أن « الجتيانوم » أو (معهد جيته) معهد دولي للعلوم العقلية ، سعى إلى تأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمسوي في سنة ١٩٢٣ ، وبني على طراز الملاعب اليونانية القديمة ؛ وأريد به أن يكون معهداً دولياً حراً لترقية العلوم العقلية يجري على مبدأ الثقافة الحرة المطلقة من كل قيد ؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة . وفي الصيف تلقى في المعهد دروس ومحاضرات دورية من أشهر الأساتذة في مختلف العلوم والفنون فيقبل على سماعها جمهور كبير من الزائرين ، ومعظمهم من الانكليز والامريكيين والألمان ، وقد شهدنا كثيرين منهم حول المعهد وداخله ؛ وهنالك على مقربة من المعهد عدة فنادق منزلية تأوي زوار دورناخ ، وإلى جانبه فوق الأكمة العالية مقهى أنيق يقصده الرواد والمتنزهون

* * *

وبعد بازل قصدنا إلى تسيريخ (زيوريخ) ، وهي أكبر المدن السويسرية وسكانها نحو ثلثمائة ألف . وتقع تسيريخ على نهر لمات أحد أفرع الراين عند مصبه في بحيرة تسيريخ ، ويخترقها نهر ليتام وقد أنشئت عليه قناطر مدرجة لحبس المياه ودفعها بقوة لتوليد الكهرباء ؛ وتقع بحيرة تسيريخ في نهاية المدينة شرقا ، وهي من أبدع المناظر البحرية التي يمكن تصورها ، وتكثر فيها القوارب البخارية المعدة للنزه القصيرة ، وكذلك السفن المعدة للحفلات الراقصة ؛ ويمتد أكبر شوارع تسيريخ ، وهو شارع المحطة Bahnhof's Str ، ما بين المحطة والبحيرة ، وهو شارع طويل فخم وبه معظم البنوك والمحلات التجارية وإدارات الصحف الكبرى وقد رأينا منها إدارة « جريدة تسيريخ الجديدة » Neue Zuricher Zeitung ؛ وفي تسيريخ أيضاً جامعة ، ومتحف تاريخي كبير ، والمدينة على وجه العموم كثيرة النظافة والأناقة تفيض حركة وحياة ، غير أننا عاينا بها نفس الغلاء المرهق الذي أشرنا اليه . وقد رأينا في الأيام القليلة التي قضيناها في هذه الربوع السويسرية الجميلة من خواص المجتمع السويسري كل ما يحمل على التقدير والاعجاب ، فسويسرا الألمانية بلا ريب من أرقى بقع أوربا وأعظمها حضارة ، والشعب السويسري (الألماني) من أذكى الشعوب الأوربية ، وأرفعها ثقافة وخلاقا ؛ فحيثما سرت رأيت أرقى مظاهر النظافة والصحة والعافية ، وألفيت الشباب النضر يتدفق حياة وبهجة ؛ وتمتاز الفتاة السويسرية برشاقتها ومظهرها الرياضي ولونها النضر ، وجمالها الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا صناعة ؛ وفي جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والأدب الجم وحسن المعاملة والأمانة ؛ ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام ؛ واللغة الألمانية هي اللغة السائدة في هذه المنطقة من سويسرا ، وهم يتحدثونها بظرف ورشاقة ، ولكنك تستطيع التفاهم أيضا بالانكليزية والفرنسية والايطالية في معظم الأحوال

ولقد أنستنا هذه الأيام القليلة الممتعة ، وما لقيناه خلالها من شمائل هذا الشعب الرفيع الدمث ، ومظاهر حياته وذكائه ونشاطه التي تحمل على الاعجاب ، ما لقيناه من متاعب الغلاء المرهق الذي يرجع بالأخص الى تفاوت سعر النقد ، وأنستنا بالأخص كثيرا مما لقينا في فرنسا وباريس من مظاهر التكلف والخشونة والرياء والجشع ، وكل ما هنالك من مظاهر حضارة تؤذن بالانحلال

(***)